(حركة التوابين في العصر الأموي ٦٥هـ/٦٨٥م.)

مقدم من أ. وليد عامر علي عون

المقدمة.

كان مقتل الحسين بن علي في كربلاء في عام ٦١هـ/٦٨٠م، بمثابة الأمر العظيم الذي صدم الشيعة والعلويين في كل أنحاء الدولة الإسلامية، ولاسيما في العراق التي عرفت منذ وقت مبكر من خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه الإسلامية بتشيعها وميل أهلها إلى علي بن أبي طالب وأبنائه.

وكان أهل الكوفة هم أكثر من فجعوا وتألموا عقب مقتل الحسين، ذلك لأنهم كانوا هم الذين راسلوا الحسين بن على ووعدوه بالنصرة والتأييد والقتال في صفه ضد الأمويين، وكان من الطبيعي أن يحس الكثير من الكوفيين بالندم والحسرة على تخاذلهم عن نصرة الحسين، وحاول عدد منهم أن يبحث عن سبيل للتكفير عن ذنبه وغسل يديه من دم الحسين. وأن ذلك الجرم لن يتم غفرانه إلا بقتل من قام بقتل الحسين أو أن يتم قتلهم أثناء محاولة الانتقام. .

وكانت تلك المشاعر سبباً في تجميع عدد كبير من رجال الكوفة، وعرف هؤلاء باسم التوابين وذلك لأنهم كثيرا ما كانوا يرددون في مجالسهم قول الله تعالى (فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم)، وبعد وفاة الخليفة الأموي يزيد بن معاوية عام ٦٤هـ/٦٨٣م، أصبحت الفرصة سانحة أمام التوابين للجهر بدعوتهم، خصوصاً وأن القبضة الأموية على الكوفة قد ضعفت عقب وفاة يزيد والتخبط الحادث في البيت الأموي وأعلان "عبد الله بن الزبير" لنفسه كخليفة للمسلمين وأمام تلك المتغيرات السريعة، دعا التوابون إلى الأخذ بثأر الحسين ابن علي، وانضم لهم الكثير من الرجال ورفع هؤلاء شعار " يا لثارات الحسين " وهو ما سيتم التطرق اليه في هذا البحث.

حركة التوابين.

كان لمقتل الحسين بن علي رضي الله عنه على يد الأمويين في ١٠ محرم ٦١هـ/٦٨٠م، بداية حركة شيعيه منظمة،هدفها القضاء على الخلافة الأموية كما أنه سيؤدي إلى تحرك سياسي كبير في أوساط أهل الكوفة من العامة والأشراف ضد استمرار الحكم الأموي فيما بعد وفاة الخليفة يزيد بن معاويه، في حين كان ابن الزبير يلتمس قيام حركة تعمل على مناوأة الأمويين، فكان قيام حزب التوابين ومناهضته للدولة الأموية من أكبر العوامل التي ساعدت على قيام حركة ابن الزبير، ولذا مدَّ الزبيريون أيديهم إلى التوابين، رغم اختلاف مبادئهم وأهدافهم، في الوقت الذي اجتمع الزبيريون والتوابون في كراهيتهم ومعارضتهم للدولة الأموية[١].

ندمت شيعة الكوفة على تخاذلها عن نصرة الحسين بن علي مما أدى إلى مصرعه، وتابوا وسموا أنفسهم "التوابين" [٢]"الذين رأوا أنه لا يغسل عنهم ذلك الجرم إلا قتل من قتله أو القتل فيه "[٣]،"وقد تزعم هذه الحركة خمسة من زعماء الشيعة هم سليمان: بن صرد الخزاعي، والمسبب بن نجبة الفزاري، وعبد الله بن سعد بن نفيل الأزدي، وعبد الله بن وال التميمي، ورفاعة بن شداد البجلي، وكلهم من أنصار علي بن أبي طالب ، وقد اجتمع هؤلاء الزعماء في منزل سليمان بن

---

[١] الخربوطلي: عبد الله بن الزبير،الدار المصرية للتاليف والترجمة، القاهرة ،دت، ص ١٦٢؛ إبراهيم بيضون: من دولة عمر إلى دولة عبد الملك،دار الكتاب الجديد، بيروت، دت،، ص ١٩٦؛ كارل بركلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية،"تح نبيلة فارس، منير البعلبكي"،بيروت، ١٩٨٣م، ص ١٢٨.

[٢] ابن سعد محمد بن سعد: الطبقات الكبرى،تح زياد محمد منصور، والحكمة،المدينة المنورة، ج٦، ١٩٨٧ مكتب ص ٢٥؛ محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي: الفخري في لآداب السلطانية والدول الإسلامية،مطبعة محمد على والاولاده، الأزهر،مصر،١٩٦٢، ص ١٠٨.

[٣] المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر،تح محمد محي الدين عبدالحميد، ج٣،دار المعارف والنهضة العربية، بيروت، ١٩٧٩، ص ص ١٠٠، ١٠١؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ،ج٣،دار صادر،بيروت ، ١٩٦٥، ص ٣٨٦.

صرد، وتبادلوا الخطابة موضحين البرنامج الذي التزم به هؤلاء الزعماء في ثورتهم، فكان الإلحاح في طلب التوبة بالوسائل كافة، وأهمها: " التضحية بالنفس،والشعور بهول الفاجعة وفداحة الإثم، والتنازل عن الأملاك واعتزال النساء والاولاد والإسراع بالانتقام من قتلة الحسين سواء الأمويين أو المتواطئين معهم"[١]،

وبالرغ من أن شعورهم بالذنب بدأ منذ مقتل الحسين سنة (٦١هـ/ ٦٨٠م)، إلا أنهم رأوا كتمان دعوتهم، وقد حانت لهم فرصة الخروج بعد وفاة يزيد ابن معاوية في شهر ربيع الأول من سنة (٦٤هـ/٦٨٣م) و أخذوا يعلنون دعوتهم بناء على طلب زعيمهم سليمان بن صرد، فازداد عدد أنصارهم أضعاف من استجاب لهم قبل ذلك[٢].وأخذ التوابون في الاستعداد للقتال وجمع الأسلحة ودعوة الناس للانضمام إليهم، حتى كان ينضم القوم بعد القوم والنفر بعد النفر، وكان ابن صرد قد كاتب شيعة المدائن وشيعة البصرة يستنهضهم للأخذ بثأر الحسين، فأجابوه جميعا إلى ما دعاهم عليه"[٣].

كانت الكوفة في الفترة التي عزم فيها التوابون على الخروج تدين بالولاء لابن الزبير، وكان واليا عليها من قبله عبد الله بن يزيد الخطمي، وقد وجد هذا في حزب التوابين فرصة ممتازة لتقوية نفوذ الحركة الزبيرية بشكل عام بالعراق؛ لأن إخماد هذه الحركة سيشغل الأمويين عنه، ويستنفد كثيراً من طاقاتهم القتالية التي قد يوجهونها ضده، ولم يتردد والي ابن الزبير عن لعن قتلة الحسين أمام أشراف

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف،تح محمد باقر المحمودي،دار المعارف للمطبوعات، ج٥،بيروت، دت، ص ص ٢٠٥- ٢٠٦؛ للمزيد من المعلومات انظر: الطبري: تاريخ الرسل والأمم والملوك، ج٥، تح أبو الفضل أبراهيم،بيروت، د.ت ،ص ٥٥٢ -٥٥٤؛ كليفورد بوزورت: الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، "تح، حسين علي"، ط٢ ، مؤسسة الشراع العربي، الكويت، ١٩٩٨م ، ص٢٢.

(٢) الطبري: مصدر سابق ج٥ ، ص ٥٥٨ – ٥٥٩ ؛ أبن الأثير: البداية والنهاية، ج٣ ، ص ٤٨٨ .

(٣) البلاذري:المصدر نفسه، ج٥، ص ٢٠٦.

الكوفة بالرغم من أن البعض منهم اشترك في قتله ويجاهر في خطبه، بقوله: "لعن الله قتلته فليظهر هؤلاء القوم آمنين ثم ليسيروا إلى قاتل الحسين وقاتل خياركم وأماثلكم فقد أقبل إليكم فإن عهد العاهد به على مسيرة ليلة، فقتاله والاستعداد له أحزم وأرشد من أن تجعلوا بأسكم بينكم"(١).

وفي هذه الخطبة إشارة واضحة إلى ذكر الحملة التي أرسلها مروان بن الحكم إلى العراق بقيادة عبيدالله بن زياد، والتي لم تكن بهدف قتال التوابين بل من أجل استعادة العراق إلى حظيرة الدولة الأموية، وقد نجح عبيدالله بن زياد بأسلوبه الذي عاد بالفائدة على ابن الزبير حيث غير مشاعر الشيعة الذين كانوا يكرهونه باعتباره استولى على حق بني هاشم في الخلافة(٢)، كما استطاع والي ابن الزبير بأسلوبه أن يتجنب لقاء ابن زياد، ودفع هذا العبء على كاهل التوابين دون أن يتكلف هو أي عناء، هذا فضلا عن أنه استطاع أن يخلص السلطة الزبيرية في العراق من نقمة الشيعة، وقتال التوابين للأمويين العدو المشترك سيؤدي إلى استنزاف طاقتهم ويؤخر استعدادهم لملاقاة الزبيريين(٣).

لكن سياسة إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبد الله والي ابن الزبير على خراج الكوفة أثارت ضغينة التوابين، عندما قاطع عبد الله بن يزيد في خطبته التي أشرنا إليها آنفا، مبديا غضبه وسخطه على موقف عبد الله بن يزيد من التوابين، معلنا عدم رضاه عن هذه السياسة، فصاح والحماسة تملؤه مهددا متوعدا، وقال: "أيها الناس: لا يغرنكم عن السيف والغشم مقالة هذا المداهن المواداع، والله لئن خرج

---

(١) البلاذري:المصدر نفسه ، ج٥ ص ص ٢٠٧ – ٢٠٨

(٢) يوليوس فلهاوزن: الخوارج والشيعة، "ترجمة عبد الرحمن بدوي"، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٨م، ص ١٩١.

(٣) الخربوطلي: العراق في ظل الحكم الأموي، ص ١٣٥؛ هند أبو الشعر، حركة المختار بن أبي عبيدالله الثقفي، عمان، ١٩٨٣م، ص١٤٠.

علينا لنأخذن الوالد بولده، والمولود بوالده، ولنأخذن الحميم بالحميم، والعريق بما في عراقته حتى يدينوا للحق، ويذلوا للطاعة"[١].

ومن خلال خطبة والي ابن الزبير نجد أن مساعدته للتوابين اقتصرت على النصح والتحذير، وكان عليه أن يقدم المساعدات الفعلية كالأموال والجند والسلاح في الوقت الذي كان يسيطر على بيوت الأموال في الكوفة، وعندما عزم التوابون على الخروج شعر بالذنب نحوهم؛ وذلك لقلة عددهم في حين كان بأمس الحاجة إليهم في انتصارهم على ابن زياد، فسار ابن يزيد إلى سليمان بن صرد زعيم التوابين ليعرض عليه الإقامة ويحذره عاقبة الأمور، وقال له: " إن المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يغشه، وأنتم إخواننا وأهل بلدنا، واحب أهل مصر خليفة الله إلينا، فلا تفجعونا بأنفسكم، ولا تستبدوا علينا برأيكم، ولا تنقصوا عذرنا بخروجكم من جماعتنا، أقيموا معنا حتى نتيسر ونتهيأ، فإذا علمنا أن عدونا قد شارف بلدنا خرجنا إليهم بجماعتنا فقاتلناهم[٢]،وعندما رأى عبيد الله ابن يزيد عزم سليمان بن صرد على الخروج عرض رأيا آخرا، وهو الانتظار حتى يجهز له جيشا ويبعثه معه[٣] ،ولم يكن ابن يزيد وحده الذي عمل على مداهنة التوابين، بل نجده يولي الخراج إبراهيم بن محمد؛ ليعمل على إغراء سليمان بن صرد: فعرض عليه أن يقيم معهما حتى يلقوا جموع أهل الشام على أن يخصاه وأصحابه بخراج جوخي[*].

---

[١] الطبري: مصدر سابق، ج٥، ص ٥٦٢.

[٢] الطبري:مصدر سابق، ج٥ ، ص٥٨٧.

[٣] البلاذري :مصدر سابق، ج٥، ص٢١٠

[*] جوخي: كورة واسعة في سواد بغداد، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص ١٧٨.

لكن سليمان بن صرد خيب آمالهم فرفض دعوة ابن يزيد ومساعدته، كما رفض إغراء والي خراج ابن الزبير، إذ قال إنا ليس للدنيا خرجنا"[١].

ما أن هلَّ هلال شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين حتى خرج سليمان إلى النخيلة* في أصحابه [٢]،فعسكر فيها ثلاثا، ومن هناك بعث برسالة إلى شيعة الكوفة ينادون بالثارات للحسين، وكان قد بايعه على التوبة ستة عشر ألفا ويقال اثنا عشر ألفا، فما لحق به بعد النداء إلا أربعة آلاف"[٣].

وأدرك والي الكوفة لابن الزبير الوضع الذي صار إليه التوابون وتوقع النتائج التي سيتوصلون إليها عندما رأى خذلان أصحاب سليمان له، فلم يكن والي ابن الزبير يرغب في تضييع قوى التوابين هدراً دون الاستفادة منها في الوقت الذي لا يرغب في أن يعمل معهم. فأعاد الكرة مرة أخرى محاولا إقناع ابن صرد بالعودة والعدل عن رأيه وخاصة بعد أن أدرك أن العدد الذي صدق مع سليمان بن صرد لن يصمد أمام الجيش الأموي إلا قليلا من الوقت، وتكون النتيجة الهزيمة ليس للتوابين فحسب، وإنما لسقوط الكوفة بين أيدي الأمويين فيما بعد، وهذا ما يتضح من الكتاب الذي أرسل فيه ابن يزيد العديد من النصائح لابن صرد حتى يتراجع

---

(١) الطبري:المصدر نفسه، ج٥، ص٥٨٨،ابن الأثير: الكامل ج٤،ص٤. محمد سهيل طقوش ، في تاريخ الدولة الأموية،دار النفائس، لبنان، ٢٠٠٦، ص١٢.

(*) النخلية:تصغير النخلة:موضع قرب الكوفة وهو الموضع الذي خرج إليه علي بن أبي طالب لما بلغه ما حصل فمن الانبار من قتل عامله عليها ،ياقوت الحموي ،معجم البلدان، دار صادر بيروت،دت،ج٥،ص٢٧٨.

(٢٤) البلاذري:أنساب الأشراف، ج٥، ص ٢١٠، الطبري: مصدر سابق، ج٥، ص٥٩٥، ابن الأثير : الكامل، ج٤، ص٦، ابن كثيرأبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي: البداية والنهاية، ج٨ ، مكتبة المعارف، بيروت، دت،ص٢٥٣ .

(٣) البلاذري :مصدر سابق، ج٥، ص ٢٠٨، الطبري: مصدر سابق، ج٥ ، ص٥٨٤ ،ابن الأثير : الكامل ، ج٤ ، ص٣

عن رأيه والعودة إلى الكوفة، عند ذلك ردَّ ابن صرد على كتاب والي ابن الزبير يحمده ويشكره على مشورته ونصائحه[١].

قام ابن صرد خطيبا في أصحابه، فقال:" إنا والله ما نطلب من الغنيمة إلا رضوان الله وما معنا من ذهب ولا فضة ولا خزّ ولا حرير، وما هي إلا سيوفنا على عواتقنا ورماحنا بأيدينا وزاد قدر البلغة إلى لقاء عدونا، فمن لم يرض بهذا فلا يصحبنا"، فتنادى التوابون من كل جانب " أنا لا نطلب الدنيا وليس لها خرجنا"[٢].

سار التوابون حتى وصلوا إلى قبر الحسين، فأظهروا التوبة من خذلانه وترحموا عليه[٣]، ثم تابعوا مسيرهم حتى انتهوا إلى قرقيسيا حيث والي ابن الزبير فيها زفر ابن الحارث الكلابي، الذي أمر بإغلاق أبواب المدينة أمامهم خوفا من أي اعتداء، ولكن بعد مقابلته للمسيب أحد زعماء التوابين وانجلاء الحقائق أمامه، أبدى زفر تعاطفه مع التوابين واستقبلهم بكل حماسة كرفاق في السلاح ضد الأمويين العدو المشترك، واعتذر لهم عما بدا لهم منه في بداية الأمر، بقوله:" إناً لم نغلق هذه المدينة إلا لنعلم إيّانا اعتريتم أم غيرنا! إنا والله ما بنا عجز عن الناس ما لم تدهمنا حيلة، وما نحب أنا يلينا بقتالكم، وقد بلغنا عنكم صلاح، وسيرة حسنة جميلة"[٤].

---

(١) الطبري : مصدر سابق ، ج ٥ ، ص٥٩٢ ، ص٦٧٥ ، ابن الأثير الكامل ، ج٤ ، ص٥ ، شاكر مصطفى : دولة بني العباس ، ج ١ ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، د ت ، ص١٥

(٢) البلاذري :مصدر سابق، ج٥ ،ص ص٢٠٨ – ٢٠٩ .

(٣) الطبري : مصدر سابق، ج٥ ، ص٥٨٩ – ٥٩٠ ، ابن الأثير : الكامل ، ج٤ ، ص ٥٢٤ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج٨ ، ص ٢٥٣، حمدي عبدا لمنعم: تاريخ الدولة العربية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٧م، ص٢٧٢ .

(٤) الطبري:المصدر نفسه ، ج٥ ،ص ٥٩٣ – ٥٩٤

أصبحت قرقيسيا مركزا للتوابين، ولم يبخل والي ابن الزبير زفر بن الحارث عليهم في تقديم المساعدات، فقد أمر للمسيب بألف درهم وفرس، ولكن المسيب قال لزفر: أمّا المال فلا حاجة لي فيه، والله ما له خرجنا،ولا إياه طلبنا، وأما الفرس فأني أقبله لعلّي أحتاج إليه أن ضلع فرسي أو غمز تحتي [١]،وأخرج إليهم سوقا، فتسوقوا، وبعث إليهم الأعلاف والطعام فتزودوا بها، وبعث أيضا إليهم الجزور إي الابل فاجتزروا منها كفايتهم، وعندما عزموا على الرحيل أخبرهم بقدوم عبيد الله بن زياد ومن معه من رجال الدولة الأموية، وأنه قادم بعدد من القوات لا تحصى[٢]، وألحّ زفر على التوابين بضرورة التروي والتراجع إلى قرقيسيا والعمل على تشكيل جبهة مشتركة قوية ضد الأمويين، وقال: " فهل لكم في أمر أعرضه عليكم، لعل الله أن يجعل لنا ولكم فيه خيرا؟ إن شئتم فتحنا مدينتنا فدخلتموها فكان أمرنا واحداً وأيدينا واحدة، وإن شئتم نزلتم على مدينتنا، وخرجنا فعسكرنا إلى جانبكم، فإذا جاءنا هذا العدو قاتلناهم جميعا" [٣]، ولكن التوابين رفضوا نصيحته بالعدول عن قرارهم والاعتصام معه لمجابهة الأمويين، وكان هذا شأن الوالي الزبيري في الكوفة[٤]، وعندما علم زفر بعزمهم على مواجهة الأمويين أشار عليهم أن يسيروا إلى عين الوردة[*] وأن يجعلوها في ظهورهم ليكون الماء قربهم، ورسم لهم خطة

---

[١] الطبري: المصدر والصفحة نفسها .فليب حتي:تاريخ سورية ولبنان وفلسطين،"تح كمال البازجي"دار الثقافة،بيروت،١٩٥٩،ص٥٨

[٢] البلاذري :المصدر نفسه، ج٥ ، ص٢٠٩ – ٢١٠ ، الطبري : المصدر نفسه ، ج٥ ،ص ٢١٠؛ ابن كثير : الكامل،ج٨ ، ص٢٥٣ .

[٣] الطبري :المصدر نفسه ، ج٥ ، ص٢٩٤ .

[٤] الطبري : المصدر والصفحة نفسها، ابن الأثير: الكامل، ج٤، ص٦.

[*]عين الوردة: مدينة مشهورة في الجزيرة، ياقوت: معجم البلدان، ج٤، ص ١٨٠.

قتالهم مع الأمويين[١]، فشكره سليمان، بقوله: " نعم المنزل به أنت أكرمت النزول، وأحسنت الضيافة، ونصحت في المشورة"[٢].

والجدير بالذكر أن زفر رغم عداوته الشديدة للأمويين لم يستغل حماس التوابين في تقديم قواته كمساعدة لهم في القضاء على الأمويين والأخذ بثأره منهم، فاقتصر على تقديم المساعدات والنصائح التي أشرنا إليها، ولعل ذلك يرجع إلى أن زفراً رأى في حركة التوابين المغامرة والتهور، وأن فرصتهم في الفوز غير مضمونة، كما أنه قد خرج مسبقا من حرب مدمرة مع الأمويين في مرج راهط ومع قبائل الجزيرة، فأصبح منهك القوى ومتعبا،وبات لا يفكر في أن يعيد الكرّة مرة ثانية، وقد يستنفذ ما أعدّه في حرب خاسرة، ولذلك قال لهم: "والله لو أن خيولي كرجالي لأمددتكم"[٣].

وجدَّ القوم بالمسير إلى عين الوردة عاملين بنصيحة زفر بن الحارث فعبأ سليمان ابن صرد كتائبه، وفي الوقت الذي وصل فيه الجيش الأموي أخيراً، وما لبث أن أخذ مواقعه في مواجهة معسكر التوابين في عين الوردة وبدأت استعداداته تتم في إطار من السرعة المتناهية لبدء عملية الالتحام فورا، والتخلص من هؤلاء الذين عرقلوا مسيرة الجيش وأعاقوا مهمته بعض الوقت، ولكن اللقاء بين المتحاربين تأخر قليلا، ولعل ذلك يعود إلى أن الجنود الأمويون لم يكونوا قد استكملوا ترتيباتهم العسكرية بشكل نهائي، كما يعود إلى محاولات القائد الأموي مفاوضة زعيم التوابين لحمله على الاستسلام والاعتراف بخلافة عبدالملك، وقد قبل سليمان

---

(١) البلاذري:المصدر نفسه، ج٥، ص ٦١٠، الطبري: المصدر نفسه، ج٥، ص ٥٩٥، ابن الأثير: الكامل، ج٤، ص٦، ابن كثير: البداية والنهاية، ج٨، ص ٢٥٣.

(٢) الطبري، نفس المصدر والصفحة.

(٣) الطبري: نفس المص.در والصفحة.

بالمحاورة مع أعدائه وقدم إليهم شروطه للقبول بعدم القتال[١]، لكنها كانت شروطاً تعجيزية وغير مقبولة أصلا لدى الأمويين فقد طلب إليهم: تسليم عبيدالله بن زياد بن مرجانه حسب تعبيره وقتلة الحسين، والانضمام إلى صفوف شيعة آل البيت، ويساعدهم في إخراج عمال ابن الزبير ويسلموا الأمر إلى أهل البيت[٢].

كان من البديهي أن "يرفض القائد الأموي شروط زعيم التوابين المستحيلة،ومعنى ذلك أن الحرب أصبحت وشيكة الوقوع، وكانت قد وقعت فعلا واتخذت شكل مناوشات"،[٣]حقق خلالها التوابون نجاحات أولية على جانب كبير من الأهمية، فقد أرسل سليمان نائبه المسيّب بن نجبه على رأس أربعمائة فارس[٤] نحو معسكر الأمويين حين علم بتحرك جيش أموي نحو عين الوردة بقيادة شرحبيل بن ذي الكلاع والحصين بن نمير السكوني[٥] فأوقع المسيب هزيمة قاسية بالجيش الأموي، أفقدته الكثير من القتلى [٦] ،على الرغم من التفاوت العددي الكبير بين كل من القوتين، وهذا عائد بدون ريب من ناحية إلى نجاح مخطط التوابين في الحرب الصاعقة، ومستوى الحماس الملتهب الذي بلغ حداً كبيراً، ومن ناحية أخرى تفكك الجبهة الأموية واختلاف شرحبيل والحصين على القيادة العليا [٧].

إلا أن هذه الهزيمة كانت بمثابة "تصعيد عنيف للموقف من جانب الأمويين الذين بادروا بإرسال أحد القائدين المهزومين الحصين بن نمير إلى عين الوردة

---

[١] ثابت الراوي: العراق في العصر الأموي، ص ١٧٠، عواطف العربي شنقارو: فتنة السلطة، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط٢، ٢٠٠١، ص ٧٣ .

[٢] البلاذري:المصدر نفسه، ج٥ ، ص ٢١٧.

[٣] المصدر والصفحة نفسها

[٤] جاء في البداية والنهاية : خمسمائة فارس ، ابن كثير : ج ٨ ، ص ٢٥٣ .

[٥] الطبري :مصدر سابق، ج ٧ ، ص ٧٥ ؛ ابن الأثير :الكامل، ج ٤ ، ص ٧٦.

[٦] الطبري :المصدر نفسه، ج ٧ ، ص ٧٥؛ ابن الأثير :المصدر نفسه، ج ٤ ، ص ٧٦ .

[٧] الطبري :المصدر نفسه، ج ٧ ، ص ٧٥ ؛ ابن الأثير :الكامل، ج ٤ ، ص ٧٦ .

ومعه اثني عشر ألفا من الجنود حيث أصبح وجها لوجه مع التوابين، وكان ذلك إيذانا بوقوع الحرب فعليا[١]، وحين اندفع التوابون من مواقعهم بقيادة سليمان بن صُرد والتحموا مع قوات الحصين الأموية التي تفوقهم عددا وعدة، وذلك في يوم الأربعاء في الثاني والعشرين من جمادي الأولى سنة(٦٥ هـ / ٦٨٥م) بعد خمسة أيام من نزولهم في عين الوردة[٢] .

يظهر من سير الاشتباكات الأولية أن"وضع التوابين برغم قلتهم العددية كان معززا، ومعنوياتهم في ارتفاع دائم، أما الحماس فقد بلغ حداً لا يوصف، وكانت تستثيره نداءات سليمان في صخب المعركة فتزيده التهابا وتأججا،:يا شيعة آل محمد، يا من يطلبوا بدم الشهيد ابن فاطمة، أبشروا بكرامة الله عز وجل، فوالله ما بينكم ودخول الجنة والراحة من هذه الدنيا إلا فراق الأنفس والتوبة والوفاء بالعهد[٣]، تلك الصيحة التي أطلقها سليمان في المعركة، والشعار الذي طرحه التوابون منذ سنوات طويلة، اقترن الآن بالفعل وحانت ساعة تنفيذه، لقد دخلوا حرب التكفير عن الذنب بأهداف مثالية وقلوب تطفح بالإيمان، عبّروا عنها إبّان المعركة بتكسير أغمدة السيوف·والتقدم إلى القتال بشجاعة خارقة وحماس منقطع النظير[٤].

دارت معركة رهيبة، وبلغت في أيامها الثلاثة الأخيرة مرحلة من التصعيد غير متوقعة من جبهة التوابين . التي انتصرت في اليوم الأول . الدافقة بالحيوية

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية،ج ٨ ، ص ٢٥٤ .

(٢) يوليوس فلهوزن : الخوارج والشيعة ، ترجمة عبدالرحمن البدوي، مكتبة النهضة المصرية،القاهرة، ١٩٥٨،ص ١٩٥ .

(٣) نقلاً عن شحادة الناضور : عبدالله بن الزبير والانتفاضات الثورية في عهد بني أمية،، دار ابن راشد، عمان، ١٩٨٤م ، ص١٤٦ .

(٤) الطبري :تاريخ، ج ٧ ، ص ٧٦ ؛ إبراهيم بيضون: التوابون، دار التعارف ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٧٦م ، ص ٢٥٦ .

والنشاط، كانت تحركات المقاتلين تتم في سرعة عجيبة، والوحدات الانتحارية الصاعقة كانت تحقق نجاحات مذهلة على أطراف ومقدمات الجيش الأموي، الأمر الذي أحدث ارتباكات في صفوفه وأفقده كثيرا من عناصره المقاتلة، ففي اليوم الأول للمعارك الجدية دار قتال ضار بين الطرفين حسمه التوابون بهجوم عنيف على طرفي الجيش الأموي فتراجع مهزوما، تاركا وراءه الكثير من القتلى والجرحى[١].وقد تركت هذه الهزيمة صدىً واستياءً عميقاً عند القائد عبيدالله بن زياد وأفقدته السيطرة على أعصابه حين صب جام غضبه وقذف بشتائمه أحد قواده شرحبيل بن ذي الكلاع متهما إياه بالتخاذل والتقصير[٢].

واستؤنف القتال الضاري في اليوم الثاني، وكان "وضع الجيش الأموي قد أصبح أكثر تعزيزا، بحيث أن التوازن العسكري إختل إلى حد كبير، وانعدام التكافؤ بين القوتين المتحاربتين بشكل ظاهر، غير أن الروح النضالية المغامرة التي تميزت بها أعمال التوابين، وذلك التسابق الجموح نحو الاستشهاد ، نسف كل قواعد التوازن، فقد كان صمودهم بطوليا ورائعا طوال يوم مثير، أثخن فيه الفريقان قتلا وجرحا ،وفي اليوم الثاني لم تكن نتيجته على ما يبدو حاسمة لأي منهما،حتى كان اليوم الثالث[٣] وهو الأكثر إثارة في معارك عين الوردة حين أطبق الجيش الأموي بكل إمكانياته على التوابين الذين أصبحوا في قلة قليلة بعد أن أفقدتهم اشتباكات اليوم السابق جزءاً كبيراً من مقاتليهم، وقد وجدوا أنفسهم في هذا اليوم محاطين من كل جانب بقوات مكثفة من أعدائهم، انقضّت عليهم بمنتهى العنف

---

[١] ابن كثير :البداية والنهاية؛ ج٨، ص ٢٥٤ .

[٢] www.google.altwabean.p158. At12 pm

[٣] .شحادة الناضور:عبدالله بن الزبير والأنتفاضات الثورية في عهد بني أمية،دار ابن راشد، عمان،١٩٨٤،ص٣٢ ص ٣٣؛ علي الصلابي:الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار:ج١،مكتبة عباد الرحمن:مصر،٢٠٠٦، ٧٤٣.

والشراسة، ولكن التوابين لم يتخاذلوا ولم يتخلّوا مطلقا عن إيمانهم بالقضية التي يناضلون في سبيلها، وإنما ظلوا متماسكين في جبهة واحدة متراصة ويقاتلون قتالا بطوليا مستميتا ، حتى إن هجماتهم الانتحارية أوقفت بعض الوقت الجنود الأمويين عن التقدم، وجعلتهم يتحاشون الالتحام المباشر معهم، فاعتمدوا النبال كسلاح رئيسي،وتمكنوا بذلك من إنزال خسائر جسيمة في صفوف التوابين، مما أدى إلى سيطرتهم أخيرا على زمام الموقف(١).

كان سليمان ، يتقدم برفاقه المناضلين، بخطى ثابتة نحو قدره الذي اختاره عن قناعة وإيمان، وفي وسط المعمعة كان صوته يخترق الآذان مرددا: "عباد الله من أراد البكور إلى ربه والتوبة من ذنبه والوفاء بعهده فإليّ"، وكانت هذه الكلمات آخر ما ردده القائد التوابي وهو يشق بسيفه صفوف الأمويين بكل جرأة ورباطة جأش، ولعله عاش في تلك اللحظات لذة الانتقام وحلم الشهادة الذي أوشك أن يتحقق ، وحدث ذلك فعلاً عندما أدركه سهم ألقى به يزيد بن حصين، فأوقعه قتيلا وكان له من العمر ثلاثاً وتسعين سنة" (٢).

بعد مقتل سليمان، تسلم راية القيادة نائبه المسيّب بن نجبه الذي أثبت أنه لا يختلف عن مستوى سليمان في جرأته المتطرفة وفي إيمانه العظيم، وقد وصفه أحد الذين شاركوا في عين الوردة بقوله: ما رأيت أشجع منه إنسانا قط، ولا من العصابة التي كان فيهم، ولقد رأيته يقاتل قتالا شديدا ما ظننت أن رجلاً واحداً يقدر أن يبلي مثل ما أبلى، ولا ينكأ في عدوه مثل ما نكأ(٣)، وقد سقط المسيب بدوره

---

(١) المسعودي : التنبية والاشراف، تح عبدالله اسماعيل الصاوي،ج٣، القاهرة، ١٩٦٩، ص ٩٤ ؛ شحادة الناضور،عبدالله بن الزبير،ص٣٣.

(٢) ابن كثير :البداية والنهاية، ج٨ ، ص ٢٥٥ ؛ فاطمة قدورة الشامي : تطور تاريخ العرب السياسي والحضاري، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٧م، ص ٢٠١ .

(٣) محمد الزبيدي . صالح السباني، الدولة الاموية،الجامعة المفتوحة،طرابلس،٢٠٠٢، ص ٨٦.

صريعا في المعركة بعد جهود مستميتة[1]، وتبعه بقية القواد وعدد كبير من المقاتلين، باستثناء رفاعة بن شداد الذي اعترف بالهزيمة وأدرك عدم جدوى القتال، وكانت القيادة قد انتقلت إليه فأصدر أوامره سرا إلى البقية الباقية من التوابين بالانسحاب والتراجع، غير أن الاستجابة لم تكن جماعية؛ لأن فئة قدر عددها نحو مائة وثلاثين مقاتلا رفضت فكرة الانسحاب، وأصرت على الاستشهاد، فظلت تقاتل حتى أبيدت بكاملها، أما الباقون فقد انسحبوا تحت جنح الظلام ممتثلين لأوامر القائد العام، وكانت عملية الانسحاب مدروسة ومنظمة إلى حد كبير، ذلك أن رفاعة كان قد أمر بتشكيل فرقة من سبعين فارسا مهمتها تغطية الانسحاب وإشغال العدو، كما أمر بتهديم الجسور والقناطر وراء المقاتلين لإعاقة أي ملاحقة قد يقوم بها الأميون[2] .

تمت عملية التراجع بنجاح تام، وابتعد التوابون المنهزمون عن ميدان المعركة، وأصبحوا في منأى عن مطاردة الجيش الأموي الذي استنكف عن محاولة اللحاق بهم[3] .

ولم تقتصر متاعب الانسحاب على التمرد والإصرار على الرجوع إلى ساحة المعركة، وإنما كانت مشاق الرحلة تفوق حدود الاحتمال، وتضفي عليها مشاق الجرحى وفقدان بعضهم في الطريق، ظلالا مأساوية قاتمة، وقد حاول زفر بن الحارث الكلبي مواساتهم والتخفيف عنهم عند وصولهم إلى قرقيسيا، فأرسل إليهم المواد الغذائية، والأطباء لمداواة الجرحى، عارضا عليهم البقاء ما شاءوا في

---

(1) ابن كثير : البداية والنهاية،ج٨ ، ص ٢٥٤ .

(2) شحادة الناضور : عبدالله بن الزبير، ص ٣٦ .

(3) ابن كثير :البدايوة والنهاية، ج٨ ، ص ٢٥٤ .

مدينته، فأقاموا فيها ثلاثة أيام[١]، انصرفوا بعدها متبعين نفس الطريق الذي حملهم إلى عين الوردة حتى إذا بلغوا هيت تفجرت أحزانهم من جديد بلقائهم إخوانهم من جماعة المدائن بقيادة سعد بن حذيفة بن اليمان، وهم في طريقهم إلى ساحة القتال[٢] ، فكان مجيئهم متأخرا وفي غير محله، ولكنهم سجلوا على أية حال موقف التضامن السياسي والعقائدي مع رفاقهم التوابين من أجل الغفران والتكفير عن الذنب، ولم يخفف بعض حدته إلا افتراقهم، عائدين كل إلى مدينته، وقد غمره أسى عميق وحمل في قلبه صورة لن تنسى من الفجيعة .

وفي الكوفة اتصل بهم المختار من السجن معزيا: "أبشروا فقد قضيتم ما عليكم وبقي ما علينا، ولن يفوتنا منهم من بقي إن شاء الله"[٣]، وهذا يدل على أن الفرصة قد حانت له ليقوم بثورته، وكانت موقعة عين الوردة في الثاني والعشرين جمادى الأولى سنة(٦٥هـ/٦٨٥)[٤].

---

[١] أبو محمد بن أعثم الكوفي:الفتوح، ج٦،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،١٩٨٦، ص٢٤٨

[٢] ابن الأثير : الكامل،ج ٤ ، ص ٧٨ ؛ و شحادة الناضور:عبدالله بن الزبير،ص٣٧.

[٣] شحادة الناضور:عبدالله بن الزبير، ص ٣٧.

[٤] أبو أعثم الكوفي:الفتوح،ج٦،ص٢٤٨

وفي ختام توصلت الي عدة نقاط وهي كالاتي:

• لقد شحنت ثورة الحسين الفكر السياسي في الإسلام،بمادة جديدة من التحدي الصعب والانتصار على الذات والتضحية من أجل المبدأ،فكانت حدثاً غير عادي في التاريخ الإسلامي،حين اجتاحت في أعقابها دولة الأمويين عاصفة ثورية عارمة، كان من نتائجها القريبة إسقاط الحكم السفياني، دون أن ينجو منها الحكم المرواني على المدى الأبعد،ويصبح الموقف السياسي العام مباشرة بعد كربلاء عصيان مسلح في المدينة، وإعلان ابن الزبير دولته في مكة، وفي العراق تطورات مذهلة، انعكست خاصة على الحركة الشيعية التي اشتدّت عليها وطأة الملاحقة، كما أثقلتها عقدة الذنب والتقصي، مما أدى إلى إفراز حركة التوابين الانتحارية .

• إن الدافع الرئيسي لتلك الحركة كان التكفير عن قتل الحسين، ولذلك لم يضع قادة الحركة خطط استراتيجية واضحة لحركتهم، ولم يكن يهمهم سوى الانتقام من الجيش الأموي، وكان في ذلك تغليب للنواحي العاطفية على النواحي الواقعية.
• لم يستطع التوابون أن يضعوا تخطيطا محكماً لحركتهم، فقد سارعوا بالتحرك لقتال الجيش الأموي بدون أن ينتظروا اكتمال حشودهم.
• إن جميع قادة الحركة كانت أعمارهم تزيد عن الستين عاماً، وكانوا قد حاربوا في صف علي بن أبى طالب في حروب الجمل وصفين والنهروان ولم يتواجد بين قادة التوابين أحد من الشباب القادرين على تجديد الدماء ووضع الخطط وحشد الجموع.
• إن الحركة قد تمت في معزل تام عن آل البيت، فلم يحدث أي اتصال بين قادة الحركة وأحد من أقارب الحسين بن علي، وهذا الأمر أثر كثيراً في ضعف الحركة لافتقادها نوعا مهماً من الدعاية السياسية، الأمر الذي انتبه له "المختار الثقفي" فيما بعد.

قائمة باسماء المصادر والمراجع:.

_ ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج٤ ، دار صادر بيروت ، ١٩٦٥ .

_ ابن سعد محمد بن سعد : الطبقات الكبرى ، "تح زياد محمد منصور" ، ج٣، مكتبة العلوم والحكمة ، المدينة المنورة ، ١٩٨٧.

_ ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي : البداية والنهاية، ج٨ ، مكتبة المعارف ، بيروت ، دت .

_ أبو محمد بن أعثم الكوفي:الفتوح، ج٦،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،١٩٨٦.

_ البلاذري : أنساب الأشراف ،" تح محمد باقر المحمودي" ، دار المعارف للمطبوعات ، بيروت ، د ت.

_ الطبري : تاريخ الرسل والأمم والملوك ، تح محمد أبو الفضل إبراهيم ، بيروت، دت .

_ المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ،" تح محمد محي الدين عبدالحميد" ج٣ ، الدار المعارف والنهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٩ .

المسعودي : التنبيه والاشراف ،" تح عبدالله اسماعيل الصاوي ، دار الصاوي، القاهرة، ١٩٦٩

_ محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن القطي : الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، مطبعة محمد علي وأولاده الأزهر ، مصر ،١٩٦٢.

_ ياقوت الحموي : معجم البلدان، دار صادر ، بيروت لبنان ، ١٩٧٧.

ثانيا: المراجع العربية.

_ إبراهيم بيضون : ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٩ م.

ـــــــــــــ: التوابون، دار التعارف ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٧٦م .

_ علي حسن الخربوطلي: العراق في ظل الحكم الأموي، ص ١٣٥؛ هند أبو الشعر، حركة المختار بن أبي عبيدالله الثقفي، عمان، ١٩٨٣م.

ـــــــــــــ: عبد الله بن الزبير، الدار المصرية للتأليف و الترجمة، مصر، دت.

ـ ثابت الراوي: العراق في العصر الأموي .

ـ حمدي عبدا لمنعم: تاريخ الدولة العربية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٧م، ص٢٧٢ .

ـ علي الصلابي:الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار:ج١،مكتبة عباد الرحمن:القاهرة ،٢٠٠٦ .

عواطف العربي شنقارو: فتنة السلطة، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط٢، ٢٠٠١.

ـ فاطمة قدورة الشامي : تطور تاريخ العرب السياسي والحضاري، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٧م .

ـ شحادة الناضور : عبدالله بن الزبير والانتفاضات الثورية في عهد بني أمية،، دار ابن راشد، عمان، ١٩٨٤م .

ـــــــــــــ:تجديد الدولة الأموية في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان،دار الكندي للنشر،القاهرة،١٩٩٦م.

ـ شاكر مصطفى : دولة بني العباس ، ج ١ ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، دت.

ـ محمد سهيل طقوس:تاريخ الدولة الأموية،دار النفائس،لبنان،٢٠٠٦م.

ـ محمد الزبيدي : صالح السباني ، الدولة الأموية ، الجامعة المفتوحة ، طرابلس، ٢٠٠٢ م.

ثالثا. الكتب الاجنبية:.

.فليب حتي:تاريخ سورية ولبنان وفلسطين،"تح كمال البازجي"دار الثقافة،بيروت.
كارل بركلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية،"تح نبيلة فارس، منير البعلبكي"،بيروت، ١٩٨٣م .
كليفورد بوزورد: الاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي، تح حسين علي، مؤسسة الشراع العربي، الكويت، ١٩٩٨.

يوليوس فلهاوزن: الخوارج والشيعة، "ترجمة عبد الرحمن بدوي"، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٨م.